الجمال والالتزام في الفن الإسلامي

مجاهد مصطفى بهجت*

مقدمة:

هذا بحث في الأدب والنقد دفعني إلى اختياره نزوع كثير من النقاد، قديماً وحديثاً، إلى محاولة الفصل بين الجمال الذي هو عنوان كل شيء خلقه الله، والدين الذي جاء توجيهاً لاستخدامات هذا الجمال في الوجود.

وقد تناول هذا الموضوع عدد من الذين كتبوا في مجال الأدب الإسلامي ضمن كتبهم وأبحاثهم، ولكن هدف هذا البحث يركز على بيان صلة الإسلام بالجمال في مجال الأدب والفن بصفة خاصة. ومن الذين تناولوا الموضوع بشكل مباشر: الأستاذ سيد قطب في "التصوير الفني في القرآن"، وقد ركز على الجمال الفني في القرآن فقط، ومنهم الدكتور عبد الفتاح رواس قلعجي في "مدخل إلى علم الجمال الإسلامي" الذي ركّز فيه على الفن المعماري في الإسلام، وردّ على من حاول الفصل بين الإسلام والجمال، مع إعطاء أدلة وافية لذلك، والدكتور يوسف القرضاوي في "الإسلام والفن"، والدكتور محسن عبد الحميد في "الفنون الجميلة من المنظور الإسلامي"، وصالح أحمد الشامي في "الفن الإسلامي"، ومنهم الشيخ محمد محمود عبد الرحمن في كتابه "الزينة والجمال في ميزان الإسلام" وقد تناوله من ناحية الأحكام الفقهية، وجهودهم متميزة في مضامينها وقيمتها العلمية، وإن كانت ذات طابع خاص وأهداف محددة.

وقد سلكت في هذا البحث منهجاً وصفياً وتحليلياً، أوردت فيه الآراء المختلفة، ثم بينت –بعد المناقشة– رأي الإسلام فيها. وقسمته إلى تمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

* الأستاذ بأكاديمية الدراسات الإسلامية بجامعة ملايا. البريد الإلكتروني: mujahidbahjat@hotmail.com

في التمهيد عرفت الجمال والالتزام والفن لغةً واصطلاحاً.

وفي المبحث الأول: تناولت علاقة الإسلام بالجمال، مبيناً مفهوم الجمال واهتمام الإسلام به، وعلاقة الجمال بالتوحيد وغايته، ومجالات جمال الكون في القرآن الكريم.

وفي المبحث الثاني: قدمت رؤية نقدية إسلامية لمفهوم الالتزام، وتناولت المسؤولية في القرآن والقواعد الشرعية، والجمال بين الذاتية والموضوعية، والالتزام والفن.

وفي المبحث الثالث: درست الأسلوب القرآني بين جمال اللفظ وجلال المعنى خلال الفواصل، محللاً بعض اللوحات الجمالية في القرآن من مشاهد الآخرة: الجنة، والنار.

وفي الخاتمة ذكرت النتائج التي توصل إليها البحث.

تمهيد

تعريف الجمال والالتزام والفن:

الجمال: لغة مصدر الجميل، والفعل جَمُلَ فهو جميل، يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٦) أي بهاء وحسن. والجمال: الحسن، يكون في الفعل والخلق. والجمال عند الفلاسفة: صفة تلحظ في الأشياء وتبعث في النفس سروراً ورضاً، وعلم الجمال باب من أبواب الفلسفة يبحث في الجمال ومقاييسه ونظرياته.[١]

والالتزام لغة: الاعتناق، من لزم الشيء لزوماً: ثبت ودام، ولزم الشيءُ فلاناً: وجب عليه، وألزم فلاناً الشيء: أوجبه عليه، والتزم الشيء أو الأمر: أوجبه على نفسه.[٢] واصطلاحاً: المشاركة بفكرة أو قضية والارتباط بها، والدفاع عنها والدعوة

[١] انظر: ابن منظور، **لسان العرب** مادة (جمل).
[٢] انظر: **المعجم الوسيط**، مادة (لزم).

والعمل لها. وهي نظرية أدبية ولدت مع النظريات السياسية الجديدة، وأصبحت في طليعة القضايا النقدية الحديثة.[٣]

والفن لغة: الضرب واللون من الشيء، والجمع فنون وأفنان. وتوسعت المعاجم الحديثة في المعنى، ففي المعجم الوسيط: الفن: جملة القواعد الخاصة بحرفة أو صناعة، وجملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطف وبخاصة عاطفة الجمال: كالتصوير، والموسيقى، والشعر، وهو مهارة يحكمها الذوق والمواهب. والفنان صاحب الموهبة الفنية: كالشاعر، والكاتب، والموسيقي، والمصوِّر، والممثِّل.[٤]

المعاني التي تدور حولها كلمة فن هي: التزيين، والتنويع، والإتيان بالجديد المعجب.

يقول العقاد: الفن هو الخط واللون، ومنه التفنين بمعنى: التزيين والتزويق، والأفانين بمعنى: الفروع أو الضروب، وهكذا كل ما ينظر بالأعين أو يدرك بالأفكار.[٥]

ويرى عبد الرحمن حبنكة الميداني أن "الجمال شيء يصعب تحديده، ولكن باستطاعة النفوس أن تحس به وتتذوقه متى أدركته."[٦] وهو: "دقيق العناصر متشابكها، فهو شيء يصعب جداً تحديده، ويصعب قياسه، ولا تنحصر ألوانه."[٧] ويرى عبد الحميد حسن أنّ "الجمال معنى من المعاني المجردة التي يمكن إدراكها، ولكن يصعب تحديد حقيقتها. فهو شائع في الكون مُنبثٌّ فيه في كثير مما يبدو من زهر وشجر، وما يطرق الأسماع من شدو الطير، وعزف العازفين... ."[٨]

---

[٣] انظر: نظرية الالتزام في الأدب العربي:
- طبانة، بدوي. **قضايا النقد الأدبي**، مصر: الدار الفنية الحديثة، ١٩٧٨م، ص٥٠-١٣٨.
- خفاجي، محمد عبد المنعم. **دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه**، القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ص١٧٠-١٧٣.

[٤] **المعجم الوسيط**، مرجع سابق، مادة (فنن).

[٥] العقاد، عباس محمود. **ساعات بين الكتب**، مكتبة النهضة العربية، ط٤، ١٩٦٨م، ص٣٤٠.

[٦] الميداني، عبد الرحمن حبنكة. **مبادئ في الأدب والدعوة**، دمشق: دار القلم، ط٢، ١٩٨٧م، ص٦٣.

[٧] المرجع السابق، ص٦٧.

[٨] حسن، عبد الحميد. **الأصول الفنية للأدب**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٦٤م، ص٢٠.

وقد وردت في القرآن مصطلحات أخرى تدل على الجمال بقسميه: المادي، والمعنوي، ومنها: الإتقان، والإحسان، والتسوية، والاتساق، والتقويم، والتعديل، وعدم التفاوت، وغيرها.[٩]

أولاً: الجمال: أهميته، وغايته، ومجالاته

١. مفهوم الجمال واهتمام الإسلام به:

مفهوم الجمال في الإسلام واسع ومتنوع ومتعدد الجوانب، فهو مفهوم شمولي يكون في المحسوسات والأفكار والمعاني والمشاعر وغيرها، وكل ما في هذا الكون من صنع الله جميل، فالله ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ (السجدة: ٧) وهو المتقن لصنعه ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨) وهو ذاته جميل يحب الجمال في كل شيء، كما ورد في الحديث عن ابن مسعودﷺ أن الرسولﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، قال رجل: إن الرجل "يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: "إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْر: بطر الحق وغمط الناس،"[١٠] فهذا الحديث الشريف ربط الجمال بالحق والعدل، الذي ضد الاعتداء والظلم وتجاوز الحدود، وهو إشارة إلى ما ينبغي أن يكون عليه الجمال في جميع سلوك البشر من ضرورة مطابقة جمال الظاهر لجمال الباطن. واهتمام الإسلام بالجمال واضح؛ إذ يلفت الإسلام انتباه المسلم إلى جمال صنع الله في الكون والطبيعة والمخلوقات في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠) وسيرد تفصيل ذلك في مجالات الجمال في الطبيعة.

---

[٩] وردت الآيات المتضمنة لهذه المفردات في البحث كالإحسان والإتقان في هذه الصفحة، والتقويم والتعديل وعدم التفاوت في مجالات الطبيعة في القرآن الكريم، أما التسوية ففي سورة القيامة ٣٨، والاتساق في سورة الانشقاق(١٨).

[١٠] مسلم بن الحجاج. **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، تركيا وتونس: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة الكتب الستة وشروحها، ١٩٩٢م، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه (٣٩)، رقم١٤٧.

كما لفت الإسلام انتباه المسلم إلى جمال صنع الله، وحثه على محاولة تمثل هذا النموذج الإلهي في الإتقان والإبداع، كما في الحديث: "إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه."[١١] و"إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، وليحدَّ أحدكم شفرته، وليُرِحْ ذبيحته."[١٢] نعم حتى في القتل والذبح يجب مراعاة الإحسان فيهما، حتى لا تشذّ عملية القتل والذبح عن الجمال الذي هو ناموس الكون. وفي المعارك حرم الإسلام التمثيل في جثث القتلى؛ لأن في ذلك ما ينافي الجمال.

وحرص الإسلام على المحافظة على الجمال الظاهر حتى في ميدان القتال حين يكثر الهرج والمرج، ويختلط الحابل بالنابل: الجمال المتمثل في وحدة الصف، ووحدة الكلمة، ووحدة القصد والهدف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٤) وربط الإسلام الجمال بقيم معنوية كثيرة لمراعاتها في سلوك المسلم الخلقي، مثل: الصبر لقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا،﴾ (يوسف: ٨٣) والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله[١٣]، وقال في العفو والصفح: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ،﴾ (الحجر: ٨٥) أي الذي لا عتاب معه، وقال في الهجر والمفارقة: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل: ١٠) والهجر الجميل هو الذي لا عتاب فيه ولا يشوبه أي شتم.[١٤]

وهكذا نرى الإسلام يهتم بالجمال في كل شيء، ويدعو الإنسان المسلم إلى المحافظة عليه في سلوكه الداخلي والخارجي، يقول عبد الخالق دومة: "وقد نمّى القرآن الكريم الحس الجمالي عند المسلم، وبناه على قيم الحق والخير والفضائل كلها، سواء

---

[١١] البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **شعب الإيمان**، تحقيق: محمد السعيد بسيوني، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، ١٨٦٧/٤.

[١٢] مسلم، **الصحيح**، مرجع سابق، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة(١١)، رقم٥٧.

[١٣] النسفي، **تفسيرالنسفي**، القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ٢١٥/٢،.

[١٤] الصابوني، محمد علي. **صفوة التفاسير**، قطر: ط٢، ١٩٨١م، ٢٦٧/٣،.

أكان جمالاً حسياً منظوراً أم جمالاً معنوياً متدبراً، وقرن القرآن الكريم القيم الدينية والاجتماعية والنفسية والخلقية بالجمال... حتى الهجر نفسه يجب أن يكون جميلاً."[١٥] وهذا الاهتمام الإسلامي الرفيع بالجمال استهوى الدكتور عماد الدين خليل فقال: "الإنسان المسلم فنان بطبعه، منفتح بكل إحساسه ومشاعره على قيم الكون والعالم بأوسع أطرها... ."[١٦]

٢. علاقة الجمال بالتوحيد وغايته وهدفه:

الجمال مطلب توحيدي يراد تحققه في الدنيا والآخرة؛ لأن الله هو الجميل ويحب الجمال، وبجماله الذاتي خلق الأشياء فأحسن خلقها. ومن كمال التوحيد حب الجمال، والسعي إلى إدراكه في الأعمال والأخلاق والفنون،[١٧] والجمال أفضل ما يرجو المؤمن حصوله يوم القيامة، ويتمثل في النظر إلى جمال وجهه سبحانه وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢-٢٣) والوسيلة إلى إدراك هذا الجمال المطلق، واللذة المتناهية هي التوحيد.[١٨] وهكذا فالتوحيد مع الوحدة والحركة -عند بعض الدارسين- من منطلقات الجمال.[١٩]

وإذا حللنا معنى كلمة التوحيد "أشهد أن لا إله إلا الله" نرى أنها تنطوي على معان جمالية كثيرة؛ لأنها الحق المطلق، والحق الأبلج، وفيها جمال؛ لأن فيها اعترافا بالحقيقة، اعترافاً من الحقيقة المخلوقة (الإنسان) إلى الحقيقة الخالقة (الله)، وفيها علاقة حيوية وحركية بين العالم العلوي والعالم السفلي: وشائج الحقيقة الألوهية النازلة، والعبودية الصاعدة اللتين تلتقيان في ترابط وانسجام دائمين.

تأمل في (أشهد) بصيغة الحاضر الدائمة التجدد والمثول أمام بصر المؤمن وبصيرته في كل وقت، وفي كل مكان، وفي كل حالة. وتأمل حركة الصورة في (لا إله إلا الله)

---

[١٥] دومة، عبد الخالق. **الأدب ومذاهبه المعاصرة**، الدوحة: دار قطري بن الفجاءة، ط١، ١٩٩٠م، ص٥٢.

[١٦] خليل، عماد الدين. **في النقد الإسلامي المعاصر**، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨١م، ص٣٩.

[١٧] قلعجي، عبد الفتاح رواس. **مدخل إلى علم الجمال الإسلامي**، بيروت: دار قتيبة، ط١، ١٩٩١م، ص٢٨.

[١٨] المرجع السابق، ص٢٨.

[١٩] المرجع السابق، ص٢٤-٣١.

الصورة الحالة والزائلة في النفي والإثبات، ولاحظ الحركة فيها: إبعاد ففـــراغ وزوال مطلق (لا إله) ثم حلول وخلاء مطلق (إلا الله). زوال كل شيء من كرسي الألوهيـــة وحلول الله المولى فيه. ما أقصر هذه العبارة وما أجلّ معانيها! ويرتبط الجمال بالجلال لله –تعالى– عند بعض الصوفية، وذلك ما أشار إليه محيي الدين ابن عربي؛ إذ يقـــول: "الجمال والجلال وصفان لله، تعالى، والهيبة والأنس وصفان للإنسان، فإذا شـــاهدت حقائق العارفين الجلال هابت وانقبضت، وإذا شاهدت الجمال أنســـت وانبســـطت، فجعلوا الجلال للقهر والجمال للرحمة."[٢٠]

وليس هدف الإسلام من الجمال واكتشاف مظاهره المختلفة هو الوقوف علـــى الجمال الظاهري وحده، بل تجاوز هذا الجمال الظاهري إلى ما وراءه. فلـــذلك نجـــد معظم الآيات التي يمتنّ الله بها على العباد تختم بالدعوة إلى التدبر أو التفكر إلى قـــدرة الله التي أوجدت هذه المظاهر.

ففي معرض الحديث عن اللباس الذي جعله الله ستراً وجمالاً للإنسان يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ (الأعراف: ٢٦) وهذه الآية الكريمة تقر بأن اللباس الحقيقي الذي هو التحلي بالتقوى، خير من اللباس الظاهري.

ومهما يكن الجمال خلاباً وفاتناً فيجب أن يتناسق مع الجمال الباطني حتى يحبه الله، والله يحب أن يراه ظاهراً على عباده بشرط ألا يكون للتكبر والخيلاء؛ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٣) وعلى هذا الأساس كانت زينة قارون محل إعراض وإنكار من العقلاء –لأن هدفها الخيلاء والكبر– وإن تمناها أهل الدنيا؛ ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا.﴾ (القصص:٧٩– ٨٠)

وإذا انتقلنا إلى جمال المرأة نجد شرط الإسلام في المطابقة بين الظاهر والباطن ماثلاً أمامنـــــا ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا

[٢٠] ابن عربي، **رسائله**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ص٦٠٥.

﴿تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢١) نعم، ولو أعجبتكم بحسنها وجمالها الظاهري.

وقد ورد أن النبيﷺ حثّ أصحابه على عدم الانخداع بجمال المرأة الظاهري فقال: "إياكم وخضراء الدمن، قيل: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال المرأة الحسناء في منبت السوء."[٢١] وقد شبّه الرسولﷺ المرأة الحسناء المنظر، الرديئة الأصل في الفساد والإضرار بالنبتة، تنبت في أرض ملوثة بالأقذار؛ إذ تبدو جميلة في منظرها، سريعة في نموها، ولكنها ضارة بالحيوان الذي يأكلها. وفي حديث آخر "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك،"[٢٢] وقد خصص ذات الدين؛ لأن الدين أفضل العناصر الأربعة كلها. فالثلاثة الأولى حينية مؤقتة، لا تتجاوز هذه الحياة الدنيا على أقصى تقدير، بخلاف الدين ففائدته تتجاوز الدنيا إلى الآخرة ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (الأعلى: ١٧)

٣. مجالات جمال الكون في القرآن الكريم:

نعرض لمجالات الجمال في الكون والوجود مما نبصره ونشاهده ونراه، فمن ذلك الجمال في صورة الإنسان؛ إذ يمتن الله، سبحانه وتعالى، على عباده في تحسين صورتهم، وتعديل خلقتهم، وتقويم هيئتهم لاستشراف القيم الجمالية في خلقهم، فيقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤) ويقول –أيضاً–: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار: ٦–٨) وهكذا يأتي الاستفهام الإنكاري ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١) أجل هو جمال خلق الله في أكرم مخلوقاته: الإنسان ذلك المخلوق العجيب الذي فيه تتجلى قدرة الخالق في

---

[٢١] انظر:
- الغزالي، **إحياء علوم الدين**، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، د.ت.، ٣٨/٢.
- الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، الرياض: مكتبة المعارف، سنة ٢٠٠٤م، ٦٩/١.

[٢٢] انظر:
- البخاري، محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**، تركيا وتونس: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة الكتب الستة وشروحها، ١٩٩٢م.
- مسلم، **الصحيح**، مرجع سابق، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين (١٥)، رقم٥٣.

جمال تركيبه، وحسن هيئته، وتناسق أعضائه وانسجامها، ذلك التركيب المترابط الذي إذا اختل منه جزء -ولو كان صغيراً- تأثرت به سائر الأجزاء الأخرى.

وصورة الطبيعة تتميز بالجمال في كل شيء: السماء، والطير، والأرض، والبحر. كل ما في الوجود مظاهر جمالية رائعة، ومعالم شاخصة تكشف قدرة الصانع الذي أوجدها على هذه الصورة: السماء وما فيها من مجرات وكواكب ونجوم، وسحب وأمطار؛ إذ يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ (الملك: ٣-٤) ويدعو مرة أخرى إلى النظر إلى متانة بناء السماء وجمال زينتها فيقول: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ (ق: ٦) وينبه إلى جمال زينة البروج فيقول: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٦) تأمّل في الدقة المتناهية في حركة الأجرام السماوية، بكتلها المختلفة، وأشكالها المتنوعة، كُلٌّ يدور في فلك معين، ومدار محدد دون انحراف: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠) تدبّر في هذا التناسق البديع في تعاقب الليل والنهار، وتبادل أدوارهما: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيۡلِ﴾ (الحديد: ٦) ويقول عز وجل: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ (الأعراف: ٥٤) وتستشعر في أجواء الليل سكونه وهدأته بعد صخب النهار وضجته، وفي عالم السماء انظر إلى تلك الطير محلقة في الجو، ترفرف بأجنحتها حيناً، وتقبضها حيناً، وتبسطها أحياناً أخرى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءم بَصِيرٌ﴾ (الملك: ١٩)

وعالم الأرض وما فيها من جبال ومحيطات وبحار وأنهار، وما عليها من إنسان وحيوان ونبات وجمادات، كلها مظاهر جمالية فنية تشهد بجلال قدرة صانعها المولى عز وجل. ففي سياق تعميق العقيدة وربطها بالخالق، يذكر الله بما زين به الأرض من الحدائق، وما أجراه من الأنهار فيقول: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ

حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ،﴾ (النمل: ٦٠-٦١) ويذكر كذلك بأزواج النبات والزرع والنخل الباسقات فيقول: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ .﴾ (ق: ٧-١٠)

وعلى سطح الأرض نجد في النبات الخضرة ذات الثمرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ،﴾ (الأنعام: ٩٩) هذه الآية الكريمة -رغم قصرها- لوحة فنية متكاملة بين إنزال الماء من السماء، وإخراج النبتة الخضراء الخلابة في الجمال، فاستقامتها على سوقها، فخروج الحبات المركبة بعضها على بعض، في ألوان مختلفة زاهية، هذه الأنواع من النبات والفواكه: حب ونخل وعنب وزيتون ورمان، وغيرها، مختلفة الألوان والأشكال وهي مجتمعة، مختلفة الألوان مع تعدد كل نوع منها على حدة: لون حال خروج الثمار جديداً، ولون حال ينعه يتراوح بين أخضر وأصفر وأحمر، وأسود وبني وزيتي اللون، كلها آيات من الله – تعالى- لقوم يؤمنون، إن تفكروا في قدرة خالقها. ويتكرر وصف هذه الثمرات ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ،﴾ (الأنعام: ١٤١) وتتجاوز مظاهر الجمال الزرع إلى الجبال وألوان صخورها بل الناس والدواب والأنعام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ،﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨) هذا التنوع في الجمال، لاستشعار عظمة الخالق، لذلك كان العلماء أكثرهم خشية لله. ومظاهر الجمال لا تقتصر على مظاهر الزرع، بل تكمن في طعوم المآكل ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ

قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤) ما أبدع قدرة الله في صنعها! ماء واحد تسقى به الأرض فتخرج ثماراً مختلفة في الطعوم: بين حلو ومر وحامض.

وفوق هذه الأرض مع النبات والزرع والثمار أصناف الأنعام والحيوان، وتجتمع هذه الأصناف في لوحة واحدة ضمن آيات متتابعة في سورة النحل، مع تنبيه القرآن إلى عنصري الجمال والمنفعة فيها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . ﴾ (النحل: ٥-٨)

انظر إلى ذلك البحر المتلاطم الأمواج: الجبار حتى لتهابه الجواري العظام، الوضيع حتى ليركبه الطفل الصغير، النافع بلحمه الطري وحليته ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . ﴾ (النحل: ١٤)

كل هذا الجمال والتنوع في الأرض والزرع، والسماء والطير، والبحر بأمواجه وباطنه يوجّه القرآن فيها النظر إلى الجمال بجانب المنفعة،[٢٣] وقد جعلهما الله عناصر لجذب انتباه الإنسان إلى استشعار خالقه، وما يستتبع ذلك من إيمان به، وعبادته وحده، ولكن أكثر الناس لا يتفكرون إلا قليلا، ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . ﴾ (يوسف: ١٠٥)

---

[٢٣] عثمان، محمد فتحي. **القيم الحضارية في رسالة الإسلام**، السعودية: الدار السعودية، ط٢، ١٩٨٥م، ص١١٣-١١٤. وانظر:
- القرضاوي، يوسف. **الإسلام والفن**، مرجع سابق، ص١٤-١٦.

ثانياً: رؤية نقدية إسلامية بين الجمال والالتزام

١. المسؤولية في القرآن والقواعد الشرعية:[٢٤]

يقرر الإسلام المسؤولية التي ناطها بالإنسان فيجعلها في بني آدم كلهم، قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢-٩٣) وتشمل المسؤولية الرُّسل أيضاً: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ.﴾ (الأعراف: ٦)

ومسؤولية الإنسان تتصل بأقواله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ،﴾ (ق:١٨) وفي الحديث: "وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم -أو مناخرهم- يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم."[٢٥] وتتصل المسؤولية بأعمال الإنسان كذلك ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا،﴾ (الإسراء: ٣٦) والإنسان مسؤول عما يُكِنّ أو يعلن: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ،﴾ (البقرة: ٢٨٤) وفي الحديث: "إنما الأعمال بالنيات."[٢٦]

ولكن هل تُضيِّق هذه المسؤولية -في العمل والقول سراً وجهراً- على حرية الأديب، وتحول دون تهيئة الجو المناسب للإنتاج الفني الرفيع؟

والحقيقة أن حرية الالتزام في الإسلام تلقائية تنبع من روح الأديب المسلم نفسه، فوجدانه المؤمن هو الذي يوجه أدبه، وليس في الإسلام تقييد لحرية الأديب، بل يبقى الميدان له رحباً فسيحاً يجول فيه بمرونة وحرية، والمسؤولية مستمدة من أصول الإسلام وقواعده؛ وذلك للأسباب الآتية:

---

[٢٤] انظر:

- ناعسة، حسني. **شعر الفقهاء نشأته وتطوره**، رسالة ماجستير بآداب جامعة القاهرة سنة١٩٧٤م، ص٢٠٠ وما بعدها.

- القرضاوي، يوسف. **الحلال والحرام في الإسلام**، مصر: مكتبة وهبه، ١٩٨٠م، ص٢١، ٣٢.

[٢٥] الترمذي، محمد بن عيسى. **السنن**، تركيا وتونس: دار الدعوة ودار سحنون، موسوعة السنة الكتب الستة وشروحها، ١٩٩٢م، رقم٢٦١٦.

[٢٦] البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، باب كيف بدء الوحي (٣)، ح١.

١. الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما ورد فيه تحريم صريح، وهذا السر في قلة الحرام في الشريعة الإسلامية ورحابة ميدان الحلال، وهذا الأصل مبدأ كلي يدخل فيه كل ما لا يناقضه، فالاتجاهات الفنية والموضوعات والأغراض الشعرية التي لا تدعو إلى حرام أو تزينه أو تجرّ إليه تجد مجال القول في الإسلام رحباً مفتوحاً.

٢. إن في الحلال غنى عن الحرام، وما حرم شيء إلا عُوِّض بخير منه حلالاً، ففي الحلال حياة طيبة مباركة في الدنيا، مثاب عليها في الآخرة، ومما يعلم بالضرورة أن كل ما أدى إلى حلال فهو حلال، سواءً أكان ذلك في الأسلوب والوسيلة أم في الغاية والهدف، وفي الحديث: "من سَنَّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء... ."[٢٧] فالإسلام لا يضيق على القدرات الفنية والأغراض الشعرية مديحاً وغزلاً ورثاء ووصفاً ... وللشاعر أن يقول فيها من خلال التصور الإسلامي دون حرج أو تردد.

٣. إن حرية الإنسان وكرامته مكفولة في الإسلام؛ إذ ميزه الله بها على سائر المخلوقات، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠) "وفي رأي بعض الفقهاء ما يبرز معنى الحرية التي منحها تعالى للبشر، فأبو حنيفةﷺ يرى عدم الحَجْر على حرية السفهاء؛ لأن في ذلك إهداراً لآدميتهم، وإلحاقاً لهم بالبهائم، وذلك ضرر جسيم يزيد في فداحته الضرر الذي يخشى بتضييع الأموال... ."[٢٨] والشاعر أولى من غيره بهذه الحرية، ويعبر أبو بكر الخوارزمي عن معنى ضرورة حرية الشاعر بقوله: "وقد كنت رأيت حاكماً يحجر على يتيم أو معتوه في وفره، ولم أر أميراً يحجر على كاتب في كتابته أو على شاعر في شعره، وإنما الشعر فرس جامح إن منع عنان سننه قطع أرسانه، واستلب عنانه به، فشقي به سائسه، وهلك معه فارسه... ."[٢٩]

---

[٢٧] مسلم، **الصحيح**، مرجع سابق، رقم١٠١٧.

[٢٨] الشوكاني، محمد بن علي. **فتح القدير**، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٩٦٤م، ٢٥٩/٩.

[٢٩] الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن موسى، **رسائله**، تحقيق: موفق فوزي الجبر، دمشق: دار التكوين، ص١٠.

٤. إن الإسلام يدعو إلى ريادة الآفاق، والاهتداء إلى الطرق الجديدة، ويؤازر هذه السبل ويباركها وينصرها على نوازع الشر وعناصر الضعف، كما يهتف بالقوى المتسامية وقدرات الارتقاء إلى السمو والرقي وبلوغ معالي الأمور، ففي الحديث: "إن الله يحب معالي الأمور ويبغض سفسافها، فإذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة،"[٣٠] "والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف،"[٣١] فالشاعر الإسلامي لا ضيق في أفقه، بل ينظر إلى بعيد، وينأى عن الأهواء الهابطة.

فالأصول والقواعد الإسلامية دعائم ثابتة تجاه الفنون الجميلة عامة في تقدير جمال الكون، وأن حبه والتفكير فيه من الفطرة، على أن يكون متوازناً،[٣٢] وهي –كذلك– للالتزام في الشعر لأنه هادف، وليس بالعبث أن يتخذ الشاعر حريته من شريعته، وينبع التزامه من ذات نفسه وأعماقه، حيث يؤمن بالإسلام ويدعو إليه ويدافع عنه.

والإباحة والحرية في الإسلام لا تعني الفوضى والتحلل، بل تتمثل فيهما أمانة صعبة ومسؤولية باهظة، فالأصل في الحرية الالتزام والانضباط، وخلاصة الموقف "أن للحرية في الأدب حرمتها وقداستها بحيث يُعدُّ أي عدوان عليها عدواناً على الإنسانية، لكن بشرط أن يتحرر مفهوم الحرية، فلا يختلط بالتحلل والابتذال، ولا يلتبس بالإباحة الضالة، والفوضى العشواء."[٣٣]

فكرة الالتزام –بدلالتها ومضمونها– قديمة، وإن كانت نشأتها الحقيقية نتيجة للإحساس بقيمة الأدب والاعتراف بعمق تأثيره وتوجيهه في العصر الحديث، ولعل دعاة الاشتراكية الواقعية كانوا من أوائل الدعاة إلى هذه الفكرة حديثاً، فقد اتخذوا من الالتزام مقياساً من أهم المقاييس للأدب لخدمة مبادئهم الاشتراكية ونشرها، وخدمة

[٣٠] البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، رقم٢٧٩٠.

[٣١] مسلم، **الصحيح**، مرجع سابق، كتاب القدر (٤٦)، باب الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتعويض المقادير لله، رقم٣٤.

[٣٢] عبد الحميد، محسن. **الفنون الجميلة من المنظور الإسلامي**، بغداد: ص٦-٩.

[٣٣] بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن. **قيم جديدة للأدب العربي**، مصر: النهضة، ١٩٦٧م، ص٢٧٢.

الملتزمين بهذه المبادئ، فالأديب عندهم هو الأديب الملتـــزم،[٣٤] ودعمـــت الفلســـفة الوجودية نظرية الالتزام في الأدب -باستثناء الشعر-؛ لأن النثر عندهم هـــو ميـــدان المعاني.[٣٥]

والأديب الملتزم ليس مطالباً أن يكون —فقط- مرآة مجتمعه، بل مساهماً في تكييف هذا المجتمع وتوجيهه والذود عنه، فهو جزء لا يتجزأ منه، يشاركه في آماله وآلامـــه، متضامناً معه، أما غيرهم، الهاربون من المجتمع، فأدبهم حري بالإهمال.

ويعارض البعض هذا المقياس بدعوى أن الأدب ليس غاية يتغذى بموقف يعارض مشاعره وتجاربه الحقيقية، ولكن من الخطأ أن يخلط بين حرية الشاعر ومواقفـــه؛ لأن تعبيره قد تتطلبه حريته نفسها. وكذلك فمن الخطأ أن يخلط بين صدور الشاعر عـــن مجتمعه، والتزامه؛ فالأدب يصور حياة شعوبه، وإنما الذي يختلف فيه أن يكون الأديب ملتزماً بقضايا معينة ومبادئ خاصة، ويصارع من أجلها، كقضية البؤس مثلاً، فالحياة -بطبيعتها- ذات ألوان متعددة تجمع الخير والشر والصالح والفاسد والحق والباطـــل، فالأرجح أن يكون الالتزام بالحق والخير والنفع؛ لأنه الوجه الفعال في الحياة الإنسانية.

ومن التعسف أن يلتزم الأديب التزام العالم أو صاحب المـــذهب السياســـي؛ لأن التزامه قد يحول دون إبداعه؛ لنفوره من القيود، وإن التزم فسيفقد عنصـــر الصـــدق الفني. وقصة الكاتب الروسي (فلاديمير مایاكوفسكي) كاتب الثورة الروسية وشاعرها تبطل دعوى الالتزام الضيقة، فقد خاض معركته الفنية تحت شعار الواقعية الاشتراكية

---

[٣٤] عبّر قرار اللجنة المركزية عن مفهوم الالتزام بأن جعل أساس الابتكار الفني الحقيقية الموضوعية، أما درجة الإنتاج الفني والأدب الواقعي فهو ما في الصورة الفنية من قوة وقدرة على دعم الحياة الاشتراكية. ويوجب القرار على الكُتَّاب السوفيت أن يهتدوا في عملهم الإبداعي بخطة الحزب البلشفي والدول السوفيتية؛ إذ هو يتيح للكتـــاب فرصة فهم الحقيقة، ويوجب على الكتاب نشر الفكرة الشيوعية والأخذ بتوجيه الحـــزب الشـــيوعي وخدمـــة الاشتراكية. (الأدب الشيوعي ص٣٤ عن قضايا النقد الأدبي ص٥١ مرجع سابق).

[٣٥] يقول سارتر: إننا نستطيع أن ندرك في يسر مدى حمق الذين يتطلبون في فن الشعر أن يكون (التزامياً). نعم، قد يكون مبعث القطعة النثرية الانفعال - أو العاطفة نفسها، وقد يكون مبعثهـــا —أيضـــاً- الغضـــب والحنـــق الاجتماعي أو السخط السياسي، ولكن كل هذه الدوافع لا تتضح دلالتها في الشعر كما تتضح في رسالة هجاء أو رسالة اعتراف.. (ما الأدب ص ١٤، ١٨ عن قضايا النقد الأدبي ص ٥١ مرجع سابق).

حتى بلغ أقصى الشوط، ثم ساوره الشك في دعوته فانتحر سنة ١٩٣٠م؛ ليتخلص من محنته، وينقذ نفسه من قلقها الذي ناله فيما التزم به.[٣٦]

لكن الأدب، عند فريق آخر، جمالي يقوم هدفه ووسيلته على الإجادة والإبداع في التعبير والتصوير والخيال، والسمو بالعواطف والمشاعر، ولا يطالب الأديب بعد ذلك بغاية أخرى. ولا علاقة عنده بين تجربته الفنية، والارتباط بالقيم الإنسانية والاجتماعية، وإن أحسن وصف تجربته الشعورية فقد حقق الغاية والهدف.

وقضية الالتزام تقع بين مذهبين: الفن للمجتمع (الحياة)، والفن للفن، والذي يُحذَر منه في الاتجاه الأول أن يتحول الأدب إلى وعظ وخطابة مباشرة، ويفقد عنصر الإثارة والحيوية، وإن كان نبيلاً صالحاً في هدفه، كما يُحذَر في الاتجاه الآخر أن يتجرد الأدب ويعفي نفسه من المثل والقيم، فينساق في خط منحرف يتنافى مع الذوق السليم، ويتلبس بالفحش والفساد والضلال.

والفنان في الحقيقة واقعي ومثالي في آن واحد، وبهما يتحقق الالتزام وليس الإلزام؛ لأن الأخير خال من الحرية والمتعة والتشويق، ولا يحقق لذلك هدفه المطلوب، وهو ما آل إليه الأدب الشيوعي، تقول بنت الشاطئ: "واشتدت الرقابة في عهد (ستالين) فرفضت كل من لا يخضع لهذا الإلزام... ولكن التجربة كشفت عن خطأ هذا الإلزام وخطره، فجاءت الأعمال الفنية مختنقة بأغلال القيود، وأعوزتها حرارة الإيمان، وصدق التعبير، وانطلاق الحركة، وبدلاً من أن يؤدي الفن دوره الفعَّال في خدمة الحياة وقيادتها، انفصل عنها وصار مجرد أداة تعليمية للدعاية المباشرة."[٣٧] ولذلك فهي ترى مهمة الأدب مع جبرية الالتزام لا الإلزام.[٣٨]

---

[٣٦] بنت الشاطئ، **قيم جديدة للأدب العربي**، مرجع سابق، ص٢٦٥. وكان نصيب (الكسندر سولجنتسين) السجن والنفي حين قال في رسالته لمؤتمر الكتاب سنة ١٩٦٦م: "لا أحد يستطيع أن يقطع الطريق أمام الحقيقة، أنا مستعد لمجابهة الموت لكي نتقدم".

[٣٧] المرجع السابق، ص٢٥٧.

[٣٨] المرجع السابق، ص٢٦٣.

٢. الجمال بين الذاتية والموضوعية:

اختلف الفلاسفة والأدباء والنقاد في ذاتية الجمال وموضوعيته وتباينت آراؤهم: بين قائل بذاتية الجمال، وآخر بموضوعيته، وثالث يرى ذاتيته وموضوعيته في آن واحد.

يرى أصحاب الاتجاه الأول أن الجمال ينبع من ذات الشخص، ويرجع إلى الظروف النفسية التي تحيط بالإنسان، وينكرون أن تكون هناك معايير موضعية مستقلة عن رد الفعل من الشخص: "وذلك لأن الأشياء التي تبدو جميلة في نظر بعض الناس، قد تبدو كئيبة في نظر آخرين."[٣٩]

ولو كان للأشياء جمال موضوعي لما اختلف اثنان في جمال الشيء ومقدار ذلك الجمال، والجمال بهذا المفهوم نسبي ينمو ويرقى بنمو الحضارات ورقيها. وعلى هذا الأساس تختلف المعايير النقدية عبر العصور، فما كان القدامى يرونه جميلاً، قد لا يكون كذلك اليوم،[٤٠] بل إن الشخص الواحد قد يختلف شعوره تجاه الشيء الواحد حسب اختلاف عمره، فما كان يعده جميلاً في صباه لم يعد كذلك في كهولته،[٤١] ويمكن أن نضرب مثلاً في بيان ذاتية الجمال باللون الأحمر بين شخصين، فقد يراه أحدهما جميلاً؛ لأنه يذكره بورد جميل رآه، ويكون قبيحاً عند الآخر؛ لأنه يذكره بحادث دموي مروع شاهده.

ويذهب أصحاب الاتجاه الآخر إلى أن سر الجمال إنما يرجع إلى روعة الشيء في نفسه، فالطبيعة تقدم لنا نماذج من الجمال، كما نرى في الورد، وفي مناظر أخرى: في الجبال الشاهقة، والوديان السحيقة، والمروج الزاهرة، وفي ما لا حد له من مشاهد أخرى.[٤٢]

---

[٣٩] حسن، عبد الحميد. **الأصول الفنية للأدب**، مرجع سابق، ص١٧.

[٤٠] عمر، مصطفى. **العمل الأدبي بين الذاتية والموضوعية**، دار المعارف، ١٩٨٩م، ص٦٩-٧٤.

[٤١] ضيف، شوقي. **في النقد الأدبي**، دار المعارف، ط٥، ١٩٧٧م، ص٨٠.

[٤٢] حاوي، إيليا. **في النقد والأدب**، دار الكتاب اللبناني، ط٥، ١٩٨٦م، ٢/ ١٣.

وإذا سلمنا بجمال الأشياء المذكورة، بقي أن نسأل: ما الذي جعلها جميلة وغيرها غير جميلة؟ ما هي خصائص الجمال فيها، أهي في اللون أم الشكل؟ أم في التناسب والتناسق والانسجام؟ أم في التوازن بين أجزائها؟ أم في شيء آخر؟ يرجع أصحاب هذا الاتجاه سر الجمال في الطبيعة والفنون إلى التناسق والتناسب والتوازن بين أجزاء الشيء وعلاقاتها. "ففي الجميل ضرب من توافق النظام هو سر جماله، وهو يبدو في تناسب دقيق بين أجزائه، تسري فيه وحدة منتظمة، تصوغه صوغاً جميلاً،"[٤٣] وهكذا يرى الموضوعيون الجمال في التناسق والانسجام والتوازن والتناغم والوحدة الموجودة في الأشياء، سواء في المرئي منها أو المسموع أو غيرهما.

وحاول الفريق الثالث التوفيق بين الرأيين السابقين: فلم يقولوا بالذاتية المطلقة ولا الموضوعية المطلقة، ومن أصحاب هذا الرأي شوقي ضيف الذي يرى أن "الجمال ذاتي وموضوعي معاً، أي خارجي وداخلي معاً؛ إذ لو كان خارجياً فقط لاعتمد على الحواس وحدها. فكان أحدّ الناس بصراً وأرهفهم سمعاً أشد إحساساً بالجمال من غيره، وهو ما لا يشهد به الواقع."[٤٤] ويذهب عبدالحميد حسن إلى قريب من ذلك؛ إذ يقول: "...ومجمل القول: إن الجمال لا ينبع من الأشياء وحدها، ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة وغير مباشرة."[٤٥]

ونستخلص من هذا أن الجمال من الناحية الذاتية هو ذلك الانطباع الذي تمتلكه الذات –وما قد يؤثر في الذات من عوامل نفسية وبيئية زمانية ومكانية– تجاه هذا الشيء الجميل، أما من الناحية الموضوعية، فيمكن ملاحظة الجمال في التناسق والتوازن والانسجام الذي يتجلى في المظاهر، والأصوات وغيرهما من الأشياء، وهذا الموقف هو الأقرب إلى رأي الإسلام الذي سيأتي بعد قليل.

والإمام أبوحامد الغزالي يرى الجمال ذاتياً وهو يتحدث عن الجمال في الأشياء وانجذاب النفوس إليها أو النفور منها: "فالمدركات تقسم إلى ما يوافق طبع المدرك

---

[٤٣] ضيف، شوقي. **في النقد لأدبي**، مرجع سابق، ص٨٠.

[٤٤] المرجع السابق، ص٨١.

[٤٥] حسن، عبد الحميد. **الأصول الفنية للأدب**، مرجع سابق، ص١٩.

ويلائمه ويلذه، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه، وإلى ما يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ. فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك، وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عن المدرك... ومعنى كونه محبوباً: أن في النفس ميلاً إليه، ومعنى كونه مبغوضاً: أن في الطبع نفوراً عنه،"[٤٦] فارتباط جمال الشيء ولذته بطبع الذات المدركة دليل على ما في إدراكه المتعة والجمال من ذاتية.

وفي موضع آخر يصرح الإمام الغزالي بموضوعية الجمال، واختلاف معايير الكشف عنه من شيء إلى آخر، فيقول: "كل شيء جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له، فإذا كان جميع حالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضه، فله من الحسن والجمال بمقدار ما حضر. فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل، ولون وحسن عدو، وتيسر كر وفر. والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازنها، واستقامة ترتيبها، وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به، وقد يليق بغيره ضده."[٤٧] فالإمام هنا وضع معايير موضوعية لكل شيء، بها يقاس جماله وحسنه، فمعيار جمال الفرس غير معيار جمال الخط، ولكن على كل حال فمعايير كل منهما موضوعية معروفة.

وأبو حيان التوحيدي بيّن العناصر التي تتدخل في الحكم على الشيء بالجمال أو القبح، فيقول: "مناشئ الحسن والقبح كثيرة، منها طبيعي ومنها بالعادة، ومنها بالشرع ومنها بالعقل، ومنها بالشهوة...،"[٤٨] فأبو حيان حدّد هنا خمسة عناصر تتدخل في تحديد الشيء الجميل: العنصر الطبيعي، والعنصر الاجتماعي (العادة)، والعنصر الديني، والعنصر الفكري، والعنصر الشهواني؛ فالشيء قد يكون جميلاً بحكم تكوينه الطبيعي، وقد يكون جميلاً؛ لاستحسان المجتمع له، وقد يكون جميلاً؛ لأن العقل يرى فيه

---

[٤٦] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، مرجع سابق، ٢٩٩/٤.

[٤٧] المرجع السابق.

[٤٨] التوحيدي، أبو حيان. **الإمتاع والمؤانسة**، ١٥٠/١، نقلا عن: إسماعيل، عز الدين. **الأسس الجمالية في النقد العربي**، مصر: دار الفكر العربي، د.ت.، ص١٤٠.

الجمال، وقد يكون جميلاً؛ لأن الدين دعا إليه ورغّب فيه، وقد يكون جميلاً؛ لأنه يسدّ الرغبة الشهوانية في الإنسان،"[٤٩] كل هذه العناصر الخمسة سوى الأول، ترى ذاتية الجمال؛ لأن المجتمع والدين وإن كان عدد أفرادهما كبيراً، فإنهما لا يمثلان جميع الناس، بل أناساً معينين، ومن ناحية أخرى فإن لحكم الشرع والعقل والعادة أهمية كبيرة تحد من أثر الطبيعة والشهوة، وتضيق عليهما.

وخلاصة القول: إنَّ الجمال ليس ذاتياً مطلقاً، وليس موضوعياً مطلقاً، وإنما فيه جوانب تجرّه إلى الذاتية، وأخرى تقرّبه إلى الموضوعية.

٣. الجمال بين الأخلاق (الالتزام) والفن:

الدين الإسلامي دين مبني على أساس أخلاقي رفيع، فقد قالﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق،"[٥٠] فكل تصرف من الفرد ضد هذا المبدأ يعد خرقاً صارخاً لمبادئ الإسلام. وقد قطع الإسلام كل عرى العبثية بالمؤمن، مهما كان دافعه وأياً كان هدفه، وذلك منذ أن وجه الله –سبحانه– هذا السؤال الاستنكاري: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥) ووردت نصوص إسلامية حاثة المسلم على فعل الخير والمسارعة إليه في أقواله وأفعاله كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: ٧٧) وفي الحديث: "...ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت."[٥١]

---

[٤٩] إسماعيل، عز الدين. **الأسس الجمالية في النقد العربي**، مصر: دار الفكر العربي، د.ت.، ص١٤٠-١٤١.

[٥٠] انظر:
- البخاري، محمد بن إسماعيل، **الأدب المفرد**، بيروت: عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٥م، رقم٢٧٣.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **السنن الكبرى**، بيروت: دار الفكر، د.ت.، ٢٥٢/١٥، رقم٢١٢٤٢.

[٥١] انظر:
- البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، رقم٥٧٨٧.
- مسلم، **الصحيح**، مرجع سابق، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كله من الإيمان (١٩)، رقم٧٤.

وبعد ذكر آراء النقاد السابقين في الذاتية والموضوعية نجد طائفة من النقاد الموضوعيين تستحسن المقياس الديني والخلقي،[٥٢] وأبرز هذه الطائفة أبو بكر الأنباري الذي يذكر الدكتور بدوي طبانة رسالته إلى ابن المعتز، وهي وثيقة نقدية تمثل وجهة نظر دعاة الالتزام الخلقي من النقاد العرب من أهل الحفاظ على سلامة العقيدة ومكارم الأخلاق،[٥٣] يقول فيها ابن الأنباري عن شعر أبي نواس الماجن: "فكان حق شعر هذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألسنتهم، ولا يدونونه في كتبهم، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم؛ لأن ذوي الأقدار والأسنان يجلّون عن روايته، والأحداث يغشّون بحفظه، ولا ينشد في المساجد، ولا يتجمل بذكره في المشاهد، فإن صنع فيه غناء كان أعظم لبليته؛ لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى، فيهيج الدواعي الدنيئة، ويقوي الخواطر الرديئة"... "والحسن بن هانئ، ومن سلك سبيله في الشعر الذي ذكرناه، شطّار كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم، وحسّنوا ركوب القبائح، فعلى كل متدين أن يذمّ أخبارهم وأفعالهم، وعلى كل متصوِّر أن يستقبح ما استحسنوه، ويتتره عن فعله وحكايته."[٥٤]

ثم يوازن الأنباري بين ما قاله أبو نواس وأبو العتاهية مستحسناً ما قاله الأخير. ويستخلص الدكتور طبانة من هذه الوثيقة بعض الأمور، منها: أن الأدب الذي يكشف العورات ويصور الرذائل جدير بالاطراح وعدم الرواية، وإن السبب في ذلك هو الإشفاق على أخلاق الأحداث من التأثر به حين قراءته أو سماعه.. وإن أصحاب هذا الأدب الفاسد يجب أن تذم أخبارهم وأفعالهم.[٥٥]

---

[٥٢] ولا عجب أن ظهرت في أمريكا مدرسة نقدية تلتزم بالمثل الدينية والخلقية، وتعارض التشكيك في الدين والصراحة في الأدب، وترى خطورة في الآداب التقدمية على المجتمع، وعليه ينبغي أن يتحرر الأدب مما ينقص – بطريق مباشر وغير مباشر– من القيم الخلقية والمثل الدينية العليا، يقول الأستاذ (بيري) في تقويمه للأدب الأمريكي: "إن الأدب الأمريكي قد لا يكون أدباً جباراً، ولكنه على كل حال أدب نظيف" انظر: – طبانة، بدوي. **قضايا النقد الأدبي**، مرجع سابق، ص١٢١.

[٥٣] طبانة، بدوي. **قضايا النقد الأدبي**، مرجع سابق، ص١١٨.

[٥٤] الحصري، أبو إسحق. **جمع الجواهر**، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٣م، ص٤٠–٤١.

[٥٥] طبانة، بدوي. **قضايا النقد الأدبي**، مرجع سابق، ص١١٨، ١١٩.

ويمثل هذا الاتجاه عمرو بن عبيد الذي يجعل البلاغة فيما يبلّغ الجنة، ويبصر بالرشد والغي، وفي حسن القول بعد حسن الصمت وحسن الاستماع، وفي قلة الكلام والحذر من سقطاته، وفي تخير اللفظ في حسن الإفهام، ويقول: "إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان؛ رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنّة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب."[٥٦]

ونجد هذا المقياس في تصنيف عبد الكريم النهشلي للشعر، حين يفضّل ما كان منه في باب الزهد والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثّل به بالخير وما أشبه ذلك فهو خير كله، أما الألوان الأخرى فالظرف والشر والتكسب.[٥٧]

ويمثل الإمام الشافعي هذا المقياس والوجهة في استحسان شعر الخلق والزهد، حتى أنه أفتى بجواز الزواج على بيت من الشعر، ولكن إذا كان البيت مثل قول أبي الدرداء:

يُرِيْدُ المرءُ أَنْ يُعْطى مُناه وَيَأبَى اللهُ إلاَ مَا أَرَادا[٥٨]

كل هذه النصوص الإسلامية تجعلنا لا نوافق بعض النقاد المسلمين القدماء في فصلهم بين العمل الفني والخيرية، كما نسب للأصمعي: عدم جودة الشعر إلا في الشّر؛ إذ يقول: "الشعر نكد، بابه الشر، فإذا دخل في الخير لان وضعف،"[٥٩] ويعدّ الأصمعي بهذا الكلام من أوائل من نادوا بالتفريق بين القيم الفنية والمثل الأخلاقية.

ومن الذين يرون الفصل بين الفنية والأخلاقية ابن المعتز، والصولي، وقدامة بن جعفر الذي أنكر على من يعيب على امرئ القيس فحشه قائلاً: "وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب –مثلاً–

[٥٦] الجاحظ، أبو عثمان. **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: الخانجي، ١٩٦٨م ١/١١٤.

[٥٧] انظر: القيرواني، ابن رشيق. **العمدة**، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٨١م، ١/٧٦.

[٥٨] البيهقي، أبو بكر. **مناقب الشافعي**. تحقيق: السيد أحمد صقر، مصر: دار التراث، ٢/١٠٠، ١٩٧٠م، ديوان الشافعي، ص١٥٣.

[٥٩] ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، بيروت: دار الثقافة، ط٢، ١٩٦٩م، ١/٣١١.

رداءته في ذاته،"[٦٠] والحقيقة أن جودة النجارة تظهر في الخشب الجيد أكثر من الخشب الرديء، وكما أن الخشب مادة النجار، فالمعاني مادة الفنان، فالجودة في كُلٍّ مطلوبة؛ ليجود الفن.

ودعا القاضي الجرجاني –كذلك– إلى تجريد العمل الفني من أي قيمة خلقية أو دينية، و لم يتردد في الرد على من عاب على المتنبي في بعض أبياته، فقال: "والعجب ممن ينتقص أبا الطيب ويغض من شعره؛ لأنه وجده يدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة كقوله:

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

والقاضي الجرجاني لا يرى حرجاً هنا في التلاعب بالمصطلحات الإسلامية، وعدم احترامها، حتى التوحيد الذي عليه تنبني الديانة الإسلامية، وليس له مسوغ في ذلك سوى أن أبا الطيب أجاد في الصياغة اللفظية وأمتع، وما أعجب هذا المعيار الفني!

ثم يعلن الجرجاني حكمه الصريح في هذه المسألة قائلاً: فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عدّت الطبقات، ولكان أولى لهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد عليه الأمة بالكفر... ولكن الدين والشعر متباينان، والدين بمعزل عن الشعر."[٦١]

وقد زعم كثير من النقاد أن الفن عملية خيالية وعاطفية بحتة تقترب إلى الجودة والكمال كلما أوغل في المبالغة والخيال، ويقل شأنها كلما كان حظ المبالغة والتهويل فيه قليلاً، وينسب لقدامة بن جعفر قوله: "ولا يستحسن السرف والكذب والإحالة في شيء من فنون القول إلا في الشعر، وقد ذكر (أرسطاطاليس) الشعر فوصفه بأن

[٦٠] قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، د.ت.، ص٦٦.

[٦١] القاضي الجرجاني، **الوساطة**، تحقيق: أبو الفضل البجاوي، بيروت: دار القلم، ١٩٦٦م، ج٦٣-٦٤.

الكذب فيه أكثر من الصدق، وذكر أن ذلك جائز في الصناعة الشعرية،"[٦٢] ويذهب قدامة في "نقد الشعر" المذهب نفسه؛ إذ قال: "إن الغلو عندي أجود المذهبين (الغلو والقصد)، وهو ماذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال: "أعذب الشعر أكذبه."[٦٣]

وهذه المقولة تخالف نظرة الإسلام مخالفة صريحة، فالإسلام لم يجز الكذب في حال من الأحوال باسم الفن والجمال، وقد ورد عن النبيﷺ فيما رواه ابن مسعود: "إن الصدق يهدي إلى البِرّ، وإن البِرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً."[٦٤]

ومن الذين أحسنوا في الرد على هذه المقولة العلامة عبد الرحمن حبنكة الميداني؛ إذ قال عنها إنها: "دعوى لا أساس لها من الصحة لدى التحليل والبحث عن العناصر الجمالية في الأدب، إن الحق إذا لبس ثوباً أدبياً جميلاً كان أجمل من الباطل، لا محالة، مهما لبس من أثواب مزخرفة."[٦٥]

ثالثاً: القرآن بين جمال اللفظ وجلال المعنى

١. جمال الأسلوب القرآني والفواصل:

إن القرآن الكريم معجزة قولية سجد المشركون لروعتها وجمالها،[٦٦] ولقد وصفه الوليد بن المغيرة حين سمع آيات منه بقوله: "والله لقد سمعت منه (الرسول عليه الصلاة

---

[٦٢] **نقد النثر**، تحقيق: طه حسين وعبد الحميد العبادي، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، ط٢، ١٩٣٧م، ص٤٥-٤٦. وكتاب نقد النثر ليس لقدامة بن جعفر، وقد نسبه إليه خطأً المحققان، وصاحب الكتاب هو إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب، وعنوانه: "البرهان في وجوه البيان".

[٦٣] قدامة بن جعفر، **نقد الشعر**، مرجع سابق، ص٩٤.

[٦٤] البخاري، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، باب قوله تعالى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٩) رقم٥٧٤٣.

[٦٥] الميداني،عبد الرحمن حبنكة. **مبادئ في الأدب والدعوة**، مرجع سابق، ص٩٧.

[٦٦] علي، أحمد محمد. **الأدب الإسلامي ضرورة**، القاهرة: دار الصحوة، ١٩٩١م، ص٢٤.

والسلام) كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه."[٦٧]

وليس القرآن بكلام الجن أو الإنس، بل تحدّاهما بأن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور منه، ثم بسورة واحدة منه، أو من مثله فلم يستطيعوا؟! واختلف العلماء طويلاً حول سرّ الإعجاز في القرآن الكريم، فأرجعه البعض إلى ما يحويه من مبادئ وأحكام وتشريع، وذهب آخرون إلى أن ذلك في إخباره عن الغيب، ويرى فريق ثالث إلى أنه في الإعجاز العلمي، إلخ.[٦٨] ولكن سيد قطب يرفض كل ذلك، ويرى أن سر إعجاز القرآن في غير ما ذكر من التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، إنه "كامن في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده."[٦٩]

وهكذا فسّر الإعجاز والجمال في القرآن في نسقه (أسلوبه) وموضوعاته، وفي لفظه ومعناه، وفي شكله ومضمونه. وهناك جوانب كثيرة تكشف جمال لفظ القرآن ذكرها العلماء قديماً وحديثاً، ومنها: فواصل القرآن وهي جمع فاصلة، والمقصود بها نهاية آي القرآن،[٧٠] ويذكر الإمام الزركشي من أنواع الفواصل في القرآن ما يأتي:

أ. المتوازي: وهو أشرفها وأعلاها، يكون عندما تتفق الكلمتان في عدد الحروف والوزن، مثل: قوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ.﴾ (الغاشية:١٣-١٦) فكلها بصيغة (مفعولة).

ب. المتوازن: وهو أن يراعى في الكلام الوزن فقط، مثل: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ.﴾ (المعارج:١٥-١٦)

ج. المطرف: وهو الاتفاق في الحروف لا في الوزن ولا في عدد الحروف، مثل: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا.﴾ (نوح: ١٣- ١٤) ولا نستطيع وصف بعضها

---

[٦٧] القرطبي، **تفسيره**، مصر: دار الكتب، ١٩٦٧م، ٧٤/١٩.

[٦٨] قطب، سيد. **التصوير الفني في القرآن**، بيروت: دار الشرق، ط٨، ١٩٨٣م، ص١٨-١٩.

[٦٩] المرجع السابق، ص١٩.

[٧٠] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، القاهرة: عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ط٤، ٥٩/١، وما بعده.

بالأفضلية؛ لأن ذلك يوحي بـــ تفاوت درجات حسن نظم القرآن، بل لكُلٍّ غـــرضٌ يؤديه، حسب مقتضى الحال.

والقرآن يراعي التناسب في الفواصل، فقد ذكر الزمخشري أنه لا تحسن المحافظـــة لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه، كما لا يحسن تخير الألفاظ المؤنقة في السمع، السلسة على اللسان إلا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنظمة. فأما أن تهمل المعاني، ويهتم بتحسين اللفظ وحـــده غـــير منظور فيه إلى مؤداه على بال، فليس من البلاغة في فتيل ولا نقير.[٧١] وذكر الزركشي أن القرآن يلجأ كثيراً إلى إيقاع المناسبة في رؤوس الآي، ويسلك في ذلـــك مســـالك مختلفة، منها:

أ. حذف بعض الحروف: مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ (الفجر: ٤) والأصـــل إذا يسري؛ ولكن لمناسبة رأس هذه الآية بالآيات السابقة حذفت الياء.

ب. زيادة بعض الحروف: ومن ذلك إلحاق الألف (بالظنون) في قولـــه تعـــالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ (الأحزاب: ١٠) لأن مقاطع فواصل هذه السورة ألفات منقلبـــة عن تنوين في الوقف، وقد زيدت الألف على النون في (الظنونا)؛ لتناسب هذه الآيـــة جاراتها السابقة واللاحقة، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ (الأحزاب: ٦٦ ـــ٦٧)

ولعل الألفات الثلاثة زيدت؛ لتصوير شدة الخوف والاضطراب الذي سيطر على المسلمين في غزوة الأحزاب، أما زيادة الألف على (الرسولا) و(السبيلا)؛ فهي لتصوير حال الكفار وهم يعذبون في النار، إذن، هذه الألفات تصور طول أصوات المؤمنين في صياحهم الداخلي، وطول أصوات الكفار، وهم يصطرخون في النار. ويعلق الإمـــام الزركشي على أثر الفواصل في حسن النظم قائلاً: "واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد متأكد جداً، ومؤثر في اعتدال نسق الكلام، وحسن موقعه مـــن النفس تأثيراً عظيماً."[٧٢]

---

[٧١] المرجع السابق، ٧٢/١.

[٧٢] الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ٧٢/١.

٢. لوحات جمالية من القرآن الكريم:

يجمع القرآن الكريم بين جمال اللفظ وجلال المعنى، فلا يطغى أحدهما على الآخر، وفي ذلك يقول الباقلاني: "فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المباني والمعاني وفقها... فالبراعة أظهر، والفصاحة أتم."[٧٣]

ويقول أبو سليمان الخطابي (ت٣٨٦هـ) في ربط جمال لفظ القرآن في نظمه بمعناه: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مُضمَّناً أصحّ المعاني: من توحيد له، عزّت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، ...وإرشاد إلى محاسن الأخلاق... واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ...ومعلوم أن الإتيان بهذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر... ."[٧٤]

نتأمل في هذا المثل القرآني في سياق التوحيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣) نجد في الآية السخرية والتهكم لعدم قدرتهم على خلق الذباب، ومن جهة أخرى نجد العجز عن رد هذا المخلوق الضعيف، وذلك في قوله: (يسلبهم) و (لا يستنقذوه)، إنه البلاغة في التعبير.

وأخيراً، نحاول عرض لوحتين من القرآن الكريم، ونحلّلهما مبينين تسلسلهما وتتابعهما، فالصورة الأولى من مشاهد يوم القيامة للجنة، والثانية للنار.

أ. من مشاهد الجنة:

في لمحة خاطفة بعد الموت، ينفخ في الصور، فإذا الناس يخرجون من قبورهم، مسرعين لنداء المولى عزّ وجل للمحاكمة: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ

[٧٣] الباقلاني، **إعجاز القرآن**، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٣م، ص٦٣.

[٧٤] بيان إعجاز القرآن للخطابي، **ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، مصر: دار المعارف، ط٢، ١٩٦٨م، ص٢٧-٢٨.

يَنسِلُونَ،﴾ (يس: ٥١) وتوضع الموازين الدقيقة للأعمال وإن كانت مثقال حبة، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ.﴾ (الأنبياء: ٤٧)

وتتم المحاكمة فيذهب كل فريق إلى مقره: المؤمن إلى الجنة، والكافر إلى النار. والجنة هي المقر النهائي الذي أعده الله للمؤمنين يوم القيامة ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ.﴾ (الغاشية: ١١-١٦) أثاث رائع، ومتاع جميل، هل يتولى المؤمنون تجهيز الأثاث؟ كلا! وماذا يفعلون إذن؟ يجلسون فقط تعلوهم ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا،﴾ (الإنسان: ٢١) أين؟ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ،﴾ (الواقعة: ١٥-٢٤) تصوير وتجسيم بديع ترى فيه الأمور ماثلة أمامك، وتتشوق نفسك إلى التنعم بهذه النعم، صورة مليئة بالنشاط والحيوية والحركة الدائبة: طواف، وذهاب وإياب، وحديث وكلام، وترى الكؤوس من المعين تلمع بصفائها وصفاء ما فيها من شراب.

ب. من مشاهد النار:

ففي حين يتمتع أهل الجنة بنعيمها، يتعذب أهل النار بعذابها ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً،﴾ (الغاشية: ٤) وكيف إذا احترقت جلودهم وأصبح لا حس لها؟! ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ،﴾ (النساء: ٥٦) ماذا يقولون وهم داخل النار؟ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ،﴾ (فاطر: ٣٧) ويتلاومون -أيضاً- ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ

تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ،﴾ (إبراهيم: ٢١) وبعضهم يلوم الشيطان فيرد عليهم قائلاً: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ.﴾ (إبراهيم:٢٢)

هل لهم فيها من طعام أو شراب أو ظل مثل أهل الجنة في الجنة؟ نعم، ولكن طعامهم لا يسمن ولا يغني من جوع، وشرابهم لا يروي غليلا، وظلهم لا يقي من حر: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ،﴾ (الدخان: ٤٣-٤٦) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ،﴾ (الواقعة: ٤٣-٤٤) والماء ماذا يفعل بهم؟ ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ،﴾ (محمد: ١٥) تصوير مفصل لحال أهل النار، يُدخِلُ في النفس الرعب والخوف، وكأن الشخص يشاهدها رأي العين، ويرى ما يقاسي أهل النار فيها.

خاتمة:

تناول البحث بعد تعريف الجمال والالتزام لغةً واصطلاحاً علاقة الإسلام بالجمال، مبيناً اهتمام الإسلام به، وعلاقة الجمال بالتوحيد وغايته، ومجالات جمال الطبيعة في القرآن الكريم. ثم قدم رؤية نقدية إسلامية لمفهوم الالتزام من القرآن والقواعد الشرعية، والجمال بين الذاتية والموضوعية، والالتزام والفن. وأخيراً، درس الأسلوب القرآني بين جمال اللفظ وجلال المعنى خلال الفواصل، وحلّل بعض اللوحات الجمالية في القرآن من مشاهد الآخرة: الجنة والنار.

وقد رأينا أن الجمال نعمة من نعم الله وشعار في خلقه، وقد جبلت النفوس على تذوقه والانجذاب إليه، وإن تفاوتت في الدرجة، ومفهوم الجمال في الإسلام مفهوم واسع يشمل كل ما في الكون والطبيعة والإنسان بشقيه: الماديّ، والمعنويّ.

وما من شك أن الإسلام حرص على جذب انتباه الإنسان المسلم لاستشراف جمال صنع الله، والتمتع به، وتمثله في جميع سلوكه: الماديّ، والمعنويّ، وحرص الإسلام –كذلك– على ضرورة مطابقة الجمال الظاهري بالجمال الباطني الحقيقي، وذلك بربط الجمال بالخير والحق والمنفعة، وعدم الفصل بينها.

وظهر لنا أن مفهوم مسؤولية الإنسان تتصل بأقواله وأفعاله، لكن الالتزام في الإسلام لا يحرم صاحبه من الحرية، على أن لا تخرج هذه الحرية إلى الفوضى والتحلل، بل تدعوه إلى السمو والرقي وبلوغ المعالي.

كما لاحظنا أن الخروج على القيم الخلقية والروحية باسم استقلال الفن، مفهوم يخالف روح الإسلام، المبني على قواعد الأخلاق الكريمة والمسؤولية والالتزام.